الأمثال النبوية دراسة أسلوبية

أ/قادة يعقوب

معهد اللغات والأدب العربي

سلطة المثل

في التعامل مع الموقف يحتاج المتكلّم غالبا ليكثف كلامه؛ سالكا في ذلك سبلا متشعبة، راميا إلى الاقتصاد اللغوي فهو يجتهد بكلّ ما أوتي من قدرة كلامية إلى استحضار رصيده اللغوي، ويحدث أنّ إبداعه لا يعبّر تعبيرا مُرضيا إذ إنّ الموقف الذي يواجهه يتجاوز قدراته التعبيرية، وفي هذه الحالة يستحضر النصّ الذي قد يلبي حاجته، ويستغرق الموقف بكل أبعاده، ومصدر هذه النصوص المستحضرة هو الذاكرة، ويتحكم في هذا الاستخدام للنص المحفوظ التوافق بين الحالتين بمعنى الموقف الذي وافق صدور النص والموقف الذي يعيشه المتكلّم، وقد يتدخل الذوق في انتقاء النصوص. ومن هذه الوجهة نظر كثير من النقّاد إلى المثل باعتباره نصّا يحمل طاقة شعورية تتجدّد بمجرد ما يستحضر في الموقف المعترض فتكسبه غنى واتّساعا ومحاججة. ونظر آخرون إليه على أنّه طاقة متجددة ونص قابل للتجدد والمعايشة وإنّه يصمد في وجه الزمن فلا يتحلل إلى أجناس أدبية أخرى.

ولنا أن نتصوّر هذا الصمود في استعماله المتكرر حتّى إنّ المثل وضعت له طقوس معيّنة للاستعمال منها أنّ نصّه لا يتغيّر وإن تغيّر المُخاطب، ثمّ إنّ هذا الاستعمال رغم تنوّعه فلا يؤثر في المثل وطبيعته؛ فقد نجد المثل في القصّة أو المسرحية أو الحياة اليومية، ويهاجر المثل من فنّ أدبي إلى فنّ أدبي آخر، ومن أمّة إلى أخرى لا يشترط في هذه الهجرة شرطا إلاّ ما تستوجبه اللغة التي ينتقل

إليها، وهذا ما خلق كثيرا من تقاطع الأمثال من حيث المعنى وطرق الاستعمال في كثير من اللغات والآداب العالمية.

وقد دفع هذا التداخل بين الأمثال المتشابهة رغم انتمائها إلى حضارات مختلفة النقاد في كثير من الدراسات إلى البحث في سرّ هذا الثبات والتنوّع في آن واحد. فكان نص المثل يجمع من مصادره ومن ثمة حظي بكل العناية. لقد استعمل الشعب المثل فكان أدبهم المفضّل يعبّرون به عن تجاربهم في الحياة، ويضمّنونه ما استخلصوه من ملابساتها بعبارات غالبا ما ترسم ظروف صدور المثل، ولا يخلو المثل من هذه المسحة التي لها ارتباط وثيق بسلطة الحكاية في حياة الإنسان، ذلك أنّ الإنسان افتتن بالسرد الحكائي.

وفي هذه الحالة بالذات يأتي المثل ليكون ملكا على الحكاية فمرة تاجها تختم به، وتارة أخرى مطلعها تفتتح به. واحتاج المعلّمون في تأديبهم النشء إلى المثل فجمعوه ووعوا ما فيه من حكم ونظموه كي يسهل تداوله، ولكن المثل لم يتطوّر إلى جنس أدبي آخر بل ازداد سلطة وظهورا وتداولا، فكانت كلّ حقبة تنتج رصيدا هائلا من هذه النصوص التي تكتسب الحياة المتجددة والرونق المتألق الدائم .

ونزلت الديانات السماوية مخاطبة النّاس ونزلت إلى مستوى العامّة منهم فجعلت من حياتهم مضربا للمثل وانتقت أهم مظاهرها وصاغتها لتثير السامع بمضمون الرسالة لإدراك ما يحيط به من الظواهر فكان المثل جزءا من نصوصها بل كان في بعض الكتب السماوية هو المهيمن الغالب.

ولمّا كان المثل بهذا التنوّع والتلوّن اخترت جزءا منه تداولته فئة من النّاس في ظروف معيّنة ومازال متداولا إلى يومنا هذا، هذا المثل أنتجته حقبة غيّرت التاريخ باتجّاه خدمة الإنسانية في أسمى معانيها.

وينضاف إلى أعاجيب هذا النصّ في الاستعمال كلّ هذه الظروف التي أحاطت بإنتاجه، إنّها ظروف الحياة المفعمة بالأحداث الجليلة، ثمّ من عجب هذه النصوص اتفاقها لقائل واحد وبهذا الكمّ الذي يتّسع عبر العصور فلا تنقضي

عجائب هذا النص مرة لطبيعته الخلاّقة على مستوى الموقف والطاقة الشعورية ومرّة على مستوى القائل وقدرته على تطويع اللغة لتحمل المعاني الإنسانية السامية.

إنّها الأمثال النبوية التي اهتمّ بها المسلمون اهتماما جعلهم يتبعونها ويرصدونها فيؤلّفون الكتب فيها. وبالتأكيد أنّ الاهتمام مرده إلى تعلّق المسلمين بالمصطفى صلى الله عليه وسلّم وفي الدرجة الثانية إخلاصهم لهذا العلم الذي نشأ بتتبّع أقواله وأفعاله وتقريره، ثمّ في الدرجة الثالثة حرصهم على تنقية السنة من أيّ دخيل في كلامه صلى الله عليه وسلّم، وفي الدرجة الرابعة تلبية هذه الرغبة الملحة التي تستهوي المتكلّم والباحث حين يشعر باللذة الفنية أمام هذا النصّ العجيب، فهذا الرصد المبوب بحسب الحروف الأبجدية والذي يتضمّن كثيرا من التحقيق والعمل العلمي الدقيق خلق لدى المستعمل هيبة في الاقتراب من هذه النصوص فإذا جاء ليوظّف نصّا منها وقف مليا كي لا يخطئ في توظيف النص، فإذا تداوله مرارا سهل عليه استحضاره دون أيّ عناء يذكر

لكن حدث لبعض النصوص من كثرة التداول تحريف عن قصد أو عن غير قصد فاتبرى طائفة من العلماء لهذه الظاهرة فجمعوا هذه الأحاديث الأمثال المتداولة وردّوها إلى أصولها وبيّنوا الصحيح منها والموضوع الضعيف وفق ما يفرضه علم الحديث.

إنّ هذه العلاقة بين المستعمل والنصّ وهذه الرقابة الدائمة التي أحاطت النص المستعمل هي ليست جديدة إلاّ أنّها في هذه الحالة شديدة مركزة وهي تؤمّن الحماية من الزوال والتحريف لنص المثل فيبقى حيّا بالاستعمال النابع من الحضور الدائم والمراقبة المستمرّة، إنّ الحديث النبوي حاضر في حياة المسلم فإذا احتجّ لكلامه شفعه بقول الرسول صلى الله عليه وسلّم؛ ويجمع تداول المثل النبوي خاصيتين: التداول النفعي المتمثل في ورود الحديث في مختلف ملابسات الحياة اليومية والتداول الفنّي الذي يخلقه النص من حيث انتمائه إلى المثل باعتبار هذا الأخير جنسا أدبيا تغلب على لغته التأثير.

واكب المثل النبوي في شكله المثل العربي فجاء في أغلبه موجز العبارة مركز المعنى ثم أضاف إليه تنوّعا حينما جاء بهذه المعاني الجديدة وألبسها كلّ هذا التصوير.

ومازال نص الحديث النبوي الشريف مفتوحا للاختيار عن طريق التداول يختار منه العاميّ ما وافق اعتقاده وقوّة إيمانه وما قد يفرضه عليه السياق من نصوص يستحضرها؛ ويختار غيره من الشعراء والكتاب والخطباء فيضمّنون نصوصهم هذه الأحاديث يشفعون بها معانيهم وما ذهبوا إليه.

وقد استطاع الشعراء أن يتخيّروا من القرآن والحديث النبوي الشريف عبارات كاملة أو غير كاملة فضمّنوها شعرهم؛ ويشير هذا الاختيار إلى طائفة من الخصائص:

أ- شيوع العبارات لما تتضمّنه من معاني صائبة في الحياة.

ب-موافقة هذه العبارات للوزن الشعري.

ج- قوّة تأثير هذه العبارة في المستعمل بالدرجة لأولى وسلطانها على المتلقي في الدرجة الثانية.

إنّ من تأثير هذه العبارات أنّها جاءت على طريقة شائعة عند النّاس متعرضة لأهمّ معالمها الفنيّة، فقد ترد العبارة مسجوعة أو تتضمّن جناسا أو تأتي على وزن شعري، ولعلّ هذه أهمّ القضايا التي شغلت النّاس وقتذاك، غير أنّ النظرة إلى هذه القضايا تغيّرت، ومن أهم معالم هذه التغيير التركيز على المعنى قبل الطريقة المعبّرة عنه، والابتعاد عن الإسراف والتعمّل، فلم يصبح السجع هدفا يتبّع، ولم يعد الجناس غرضا يطلب، وإنّما ترد العبارة خادمة للمعنى.

ولنص المثل خاصيّة هي القدرة على أخذ المبادرة في التغيير فهو نصّ من اللغة العربية يحمل على عاتقه مهمّة التغيير للمفاهيم على جميع الأصعدة منها الصعيد الفنّي، وإذا جاز لنا أن نوازن بين المثل النبوي والمثل العربي

فكلاهما عمل على التغيير إلاّ أنّ تغيير المثل العربي اتّسم بغياب سلطة النصّ أمّا المثل النبوي فهو حاضر السلطة ويستمدّ هذا التأثير من قائله.

الاهتمام بالتأليف في المثل

لقد تعددت التعريفات للمثل في كتب الأدب العربي القديم؛ قال أبو عبيدة: (الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام بها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكناية صحيحة فيجمع لها بذلك ثلاث خصال: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه، وقد ضربها النبي صلى الله عليه وسلّم هو ومن بعده من السلف)[1] أمّا تعريفه في جمهرة الأمثال فهو: (لمّا عرفت العرب أنّ الأمثال تضرب في أكثر وجوه الكلام وتدخل في جلّ أساليب القول أخرجوها في أقواها من الألفاظ ليخف استعمالها ويسهل تداولها، فهي من أجلّ الكلام وأنبله وأشرفه، وأفضله لقلة ألفاظها وكثرة معانيها، ويسر مؤونتها على المتكلم، ومن عجائبها أنّها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب، ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب)[2]

وقال الزمخشري: (الأمثال قصارى فصاحة العرب العرباء وجوامع كلمها ونوادر حكمها وبيضة منطقها وزبدة حوارها وبلاغتها التي أعربت بها عن القرائح السليمة، والركن البديع إلى ذرابة اللسان وغرابة اللسن حيث أوجزت اللفظ، وأشبعت المعنى، وقصرت العبارة، وأطالت المغزى، ولوحت فأغرقت في التصريح، فأغنت عن الإفصاح)[3]

وهذه التعريفات للمثل دليل آخر على أنه حاز المكانة الكبيرة في اهتمام المؤلفين قديما وحديثا، لما له من عظم الأثر على مستعمله وعلى متلقيه؛ وبهذا الشكل فقد تعدّدت معانيه فعند من ألف في المثل فهو مستعمل فيما يأتي:

* في حكم العرب المؤثرة في القلوب المستعملة في معناها الحقيقي.

*في التشبيه الصريح.

*فيما ورد من جوامع الكلم المشتمل على أبلغ المعاني وأحكم المباني في حديث الرسول وكلام الصحابة

*الشيء العجيب والصفة والحال والقصة واستعماله بهذا المعنى قد شاع في أمثال القرآن وأمثال السنّة.

ولمّا كان المثل وسيلة تربوية هامة شاع استعماله في الحديث النبوي الشريف(والمضمون الإنساني للأمثال والحكم يتصل بالطبائع البشرية من الخير والشر والسعادة والشقاء والفضيلة والرذيلة وهي أمور تعرفها شعوب الأرض جميعا في كل وقت وقد حث علماء التربية طلبة العلم على حفظ الأمثال والحكم لأنّها الأنغام اللّغوية الصغيرة للشعوب ينعكس فيها الشعور والتفكير وعادات الأفراد وتقاليدهم)[4]

لقد صنّفت كتب كثيرة في الأمثال القرآنية والأمثال النبوية منها:(كتاب أمثال الحديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم) تأليف أبو محمد الحسن ابن خلاد الهرمزي و(كتاب الأمثال السائرة) عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم لأبي عروبة الحسين بن محمد الحرّاني و(أمثال الضبي) للمفضّل الضبي(ت 250هـ)، و(الدرّة الفاخرة) في الأمثال السائرة لأبي عبيد البكري و(فصل المقال في شرح كتاب الأمثال) للأصفهاني حمزة بن الحسن و(جمهرة الأمثال) لأبي هلال العسكري و(المستقصي في الأمثال) للزمخشري و(مجمع الأمثال) للميداني.

وقد سعيت كي أطّلع على معظم ما كتب في الأمثال التي تخص الحديث النبوي لهدفين اثنين هما: محاولة رصد النصوص التي أصبحت أمثالا وكذا الاطلاع على الطريقة التي ألّفت بها هذه الكتب فوجدت التأليف في ما اطّلعت عليه لا يتعدّى الجمع والتحقيق والشرح، فلا توجد دراسة كاملة وفق منهج محدد تأخذ الأمثال بالتحليل الشمولي، ومن ثمّة يمكننا أن نعتبر هذه المحاولة مجهودا يدخل ضمن كل هذه المجهودات التي كرست من أجل خدمة الحديث النبوي الشريف حتى لا يبقى استعماله محصورا في الاجتهادات الفقهية واستنباط الأحكام الشرعية، بل يتعدى ذلك إلى التذوّق اللّغوي والأسلوبي.

ورواية الحديث بالمعنى قضية متفق عليها بين القدامى والمعاصرين، يقول مصطفى صادق الرافعي في كتابه إعجاز القرآن: (ليس كل ما يروى على أنّه حديث يكون من كلام النبي صلى الله عليه وسلّم بألفاظه وعباراته، بل من الأحاديث ما يروى بالمعنى فتكون ألفاظه أو بعضها لمن أسندت إليه في النقل ...ولو كان التدوين شائعا في الصدر الأول وتيسر لهم أن يدوّنوا كل ما سمعوه من النبي بألفاظه وبيانه لكان لهذه اللغة شأن غير شأنها)[5]

وترتب على رواية الحديث بالمعنى أمور عدّة منها: شيوع التصحيف بسبب اختلاف طبيعة الرواة، وكان منهم من لا يحسن العربية من الأعاجم والمولدين، ومنهم من لا تعينه ذاكرته كثيرا، ومنها امتناع سيبويه وغيره من أئمة النحو واللغة عن الاستشهاد بلغة الحديث، واعتمدوا على القرآن وصحيح النقل من العرب، ومنها أن الدارس في خصائص أسلوب الحديث يواجه مشكلة عدم التأكد من صحة نسبة هذا الأسلوب إلى مصدره، وهو الرسول صلى الله عليه وسلّم.وهي مشكلة لا يتعرض لها الباحثون في مضامين الأحاديث وصحة نسبة هذا المضمون أو غيره إلى قائله.

البنية الصوتية في المثل النبوي

يستعمل الصوت في الأمثال استعمالا متنوعا بحسب السياق الذي يُفْرَضُ والحالات التي يخضع لها القول والمتكلم وكذا المتلقي؛ فمرة يكون المتكلّم في حاجة للتكرار لأنّ المتلقي يستجيب لِمِثْلِ هذا الإجراء ومرّة يحتاج المتكلم لاستعمال بعض الإمكانات التي تتيحها اللغة حتى تمر الرسالة كاملة دون أن يحدث خلل في فهم الرسالة؛ كالاشتقاق الواضح في حديثه صلى الله عليه وسلّم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)؛ فالكلمات: المسلم، وسلم، المسلمون كلها تنتمي لمصدر واحد وقد توفّرت بفضل الاشتقاق الذي يجمعها من حيث الشكل والمصدر ليدل على تقاربها من حيث المعنى ومن ثمّة يسهل على المتلقي فهم المعنى بيسر.

هذا التقارب من حيث المصدر تسانده ظواهر صوتية أخرى وهي التي يتوهم السامع أنّها من مصدر واحد إلاّ أنّ الحقيقة ليست كذلك وهذا ما يُحدِث لدى المتلقي اهتماما يجعله يركز أكثر على المعنى المراد وكأنّ هذا الإيهام يوجهه إلى المعنى توجيهاكما في الحديث: شر ما في رجل شح هالع جبن خالع فبين الخلع والهلع إيهام بالتقارب الصوتي وهو ما يجلب الانتباه المتلقي.

ومن المسلّم به أنّ الصوت لا يحتوي في ذاته معنى إلاّ أنّ استعماله في شكل معين وبنسب معينة يصيّره ذا دلالات تخدم المعنى وتكثفه؛ لذا فدراسة الصوت المفرد في التركيب –سواء أكان التركيب بسيطا أو معقدا – يخضع لهذا الاعتبار.

(العلاقة كاملة بين الأصوات المعبرة والمعاني الثائرة لأنّها صورتها تعلو وتنصب وتلين أو تشتدّ وتطول أو تقصر وكلما كانت الصحة النفسية أكمل كان الوزن الصوتي أنسب؛ وليس معنى الصحة النفسية الخلو من الهزات الحادثة بالمثيرات فهذا التبلّد مرض لا صحة ولكن معناها عدم مجاوزة الهزات درجة المثير على تدريج النفس فجهاز القياس فاسد إن قاس الشيء بغير قيمته وعندها تفقد الثقة من نتائجه وكلما اشتدت دقّة الحس فيه بالقيم الإنسانية مها لطفت علت قيمته وتأكد الوثوق منه ونفوس القادة هي تلك الموازين في حياة الشعوب؛ والرسل من القادة هم أرق وألطف ما وهبت المقادير للبشر ولهذا فهم أصح الناس أنفسا وأسلمهم منطقا والبيان النبوي كالقرآن المجيد في الهداية والغاية والقيم الصوتية فيه قيَم شعورية تمليها المواقف؛ وهي عند البلاغيين تقاس بالبديع وقد تعلو فتقاس بأركان الوزن الشعري)[6]

مهما تنوعت الطرق فإنّ (الدراسة الصوتية صارت تحتل مكانا مرموقا في المقاربات الشعرية سواء أكانت الأصوات مكتوبة على صفحة ترى بالعين أو كانت متعلقة بما ينتجه متكلم من الأصوات أثناء تلفظه والنوعان معا:المواد الصوتية أو الكتابية يستثمران في دراسة الخطاب الشعري، فإذا ما استعملت كيفية النطق بالأصوات فذلك ما يدعى بالأسلوبية الصوتية)[7]

إنّ أوّل ما يجب الاهتمام به في المعطيات اللغوية هو رمزية الصوت أو القيمة التعبيرية للصوت ورمزية الصوت هذه شغلت الباحثين في اللغات الإنسانية وفي مختلف الثقافات منذ القديم إلى يومنا هذا. فهناك من يقول بالقيمة الذاتية للصوت وأبرز مثل لهذا الاتجاه هو ابن جني فقد برهن على دعواه في عدّة أبواب من كتابه "الخصائص". ولكن هذا الاتجاه لم يرض عنه كثير من اللغويين ومنهم السيّد البطليوسي في فصل الأسماء المتقاربة في اللفظ والمعنى؛ فبعد أن أورد آراء ابن جنّي في بعض الأصوات رأى ذلك قياسا غير مطرد وأنهى كلامه: "إذا كان الأمر على هذا السبيل كان التشاغل بها تشاغل به ابن جنّي عناء لا فائدة فيه" ومع كل هذا ومهما كانت المناقشة حول الرمزية الصوتية فإنّ الباحثين لم يضعوا بعد شروطا ضرورية كافية لحصرها وضبطها وإنما تبقى دراستها ذوقية لا تملك البرهنة عليها لإثبات وجاهتها. على أنّ شرطا ضروريا ولكنّه غير كاف وهو تراكم أصوات معينة أكثر من غيرها في البيت أو القصيدة ومع ذلك لا بد من محاولة رصد بعض المؤشرات الرمزية الصوتية وهي:

ألا يحتوي النثر على بعض الخصائص الصوتية ؟الإجابة عن هذا التساؤل هي: أنّ النثر الفني وغيره من النثر يحتوي على خصائص صوتية حتى أنّ من العرب من ادعى أنّه وجد الشعر في القرآن الكريم؛ وقد علمنا أنّ الله تعالى نفى الشّعر من القرآن ومن النبي عليه السلام فقال: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وما ينبغي له إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين }[8] وقال في ذم الشعراء : {والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنّهم في كل واد يهيمون}[9] إلى آخر ما وصفهم به، {فإن زعم زاعم أنّه قد وجد في القرآن شعرا كثيرا فمن ذلك ما يزعمون أنه بيت تام أو أبيات تامّة ومنه ما يزعمون أنّه مصراع؛ومما يزعمون أنّه بيت تام قوله تعالى: {وجفان كالجواب وقدور راسيات }.قالوا هو من الرمل وكقوله:{من تزكّى فإنّما يتزكى لنفسه}. قالوا من بحر الخفيف. وكقوله: {ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب}. قالوا هو من المتقارب. وكقوله:{ودانية عليهم

ظلالها وذللت قطوفها تذليلا}.وقوله تعالى:{ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين}.زعموا أنّه من الوافر. وكقوله تعالى:{أرأيت الذي يكذبُ بالدّين فذلك الذي يدعّ اليتيم}.وهذا من الخفيف.ونحو ذلك في القرآن كثير كقوله:{والذرايات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا}. وهو عندهم شعر من بحر البسيط)[10]إذا كان أبو بكر الباقلاّني أورد هذه الآيات في معرض الردّ على من يدّعي بأنّ في القرآن شعرا فهذا لا يمنع استعمال الصوت في القرآن بشكل خاص كما هو الشأن في الحديث النبوي الشريف وإن كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينظم الشعر ولا يرويه كما ثبت في الأخبار؛ فإنّه على كونه أفصح العرب إجماعا لم يكن ينشد بيتا تاما على وزنه إنّما كان ينشد الصدر أو العجز فحسب وأنشد البيت السائر لطرفة على هذه الصورة: ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا

ويأتيك(من لم تزودّ) بالأخبار، وإنّما هي: ويأتيك بالأخبار من لم تزودّ. (ولم تجر على لسانه صلى الله عليه وسلم مما صح إلاّ ضربان من الرجز: المنهوك والمشطور أمّا الأوّل فكقوله في رواية البرّاء: إنّه رأى النبي صلى الله عليه وسلم على بغلة يوم أحد ويقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب.

والثاني كقوله في رواية جندب إنّه صلى الله عليه وسلم دميت إصبعه فقال:

هل أنت إلاّ إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

وإنما اتفق له ذلك لأنّ الرجز في أصله ليس بشعر وإنّما هو وزن كأوزان السجع وهو يتفق للصبيان والضعفاء من العرب)[11] وخلاصة القول هو أنّ الشعر منفي عن القرآن والرسول لا شك في ذلك إلا أنّه لا يمكننا أن نهمل هذه الظواهر الصوتية الموجودة في القرآن وكذا في الحديث، وهذا ما دفع ببعض الشعراء إلى الاقتباس من القرآن والحديث لأن كثيرا من ألفاظ البيان النبوي يجري على الوزن، ولم يكن ذلك بالطبع مقصودا منه صلى الله عليه

وسلم كما أنّه لم يسر على منهج، ولهذا نرى ما يضمنه الشعراء أشعارهم من كلامه الشريف إما(اقتباس بالنص ذاته وإمّا بشيء من التغير الطفيف ومنه هذه الأمثلة:

1: قال لي الخاطب ماذا تبتغي فوق هذا الحسن في هذا الزمن؟
قلت: قد حذّرنا خير الورى قال: إياكم وخضراء الدمن

2: أنصر أخاك ظالما تحجزه عن ظلمه
كم بات منّا نادما من لم يجد في قومه
من صانه في شرّه ورده عن إثمه

3:مثل الجليس الصالح كحامل المسك الأرج
يحذيك أو تبتاع منه شفاء همّ ينفرج

ومن غير حاجة إلى الدليل أن يكون النسق النبوي أزكى جرسا وأسمى نبرة من شعر يتضمن شيئا منه وإن حوفظ على النص المقتبس لأنّه الصوت الأول للتجربة الشعورية في الدلالة على الوجدان والمنبعث في الصورة الكاملة للنص على مقياس أبعادها)[12] مما سبق نستنتج أنّ دراسة الصوت لا تنظّمها قواعد متعارف عليها بين الدارسين؛ وينضاف إلى هذه الصعوبات طبيعة النص الذي نحن بصدد دراسته فالحديث النبوي نص مقدّس لا يجوز فيه الخروج عن المجال المسموح فيه بالتأويل، زد على كل هذا النصوص التي اخترناه لندرسها مجموعة من مصادر متنوعة ورغم توخينا لمقياس تطابق هذه النصوص من حيث اللفظ وترجيح أقربها إلى ما تلفظ به الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنّ هناك شكا يراودنا في انسجام هذه النصوص لكن يشفع لهذه النصوص انتماؤها إلى فنّ المثل الذي يمكن أن يوفر لنا هذا الانسجام نسبيا خاصّة إذا توفرت في هذه النصوص جملة من الخصائص التي عادة تستهوي الدارس.

* يتكرر الصوت المفرد في الجملة بأن يرد في بداية المثل وفي نهايته وهذا النوع من التكرار مطّرد بكثرة في الأمثال النبوية؛ كما في حديثه صلى الله عليه وسلم: (ربّ صائم حظّه من صيامه الجوع والعطش، وربّ قائم حظّه من

قيامه السهر) فكما هو واضح بدأ الحديث بحرف الراء وختم بحرف الراء. وكما هو الحال في قوله صلى الله عليه وسلَم: (ربَ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَه) فالحديث كما هو واضح بُدِئ بحرف الراء وختم به.

* يتكرر الحرف في الكلمة الأولى وكذا في الكلمة الثانية الواقعتين في الجملة نفسها كما الحال في قوله صلى الله عليه وسلم: (خير النكاح أيسره)فحرف الراء موجود في كلمة(خير) وواقع في آخر الكلمة وموجود في كلمة(أيسر) وهو في آخرها؛ وكل هذا يخلق لدي القارئ رنّة تجطه يستلذ تكرار الجملة خاصّة إذا كانت قصيرة. وورد في فيض القدير: (خير النكاح أيسره أي أسهله للخطبة بمعنى أنَ ذلك يكون ممّا أذن فيه وعلامة الإذن التيسير ويستدل بذلك على يُمْنِ المرأة وعدم شؤمها لأنَ النكاح مندوب إليه جملة ويجب في حالة فينبغي الدخول فيه بيُسر لأنَه أُلفَة بين الزوجين فيقصد منه الخفَةَ فإذا تيسرَ عمّت بركته ومنْ يُسرِه خفَةُ صداقها وترك المغالاة فيه)[13]إذا جاورنا بين الكلمتين وجدناهما يشتركان في المعنى فكلاهما يفيد التيسير والتسهيل ففي اليسر خير؛ فضلا عن هذا اشتراك الكلمتين في عدد الحروف ففي كل كلمة ثلاثة أحرف هي(خ|ي|ر_ي|س|ر) إذن نلاحظ اشتراك الكلمتين في حرفين اثنين لا حرف واحد. وهذا ما يجعل الكلام أكثر تماسكا من الناحية الصوتية إذ يمثل هذا الإجراء اقتصادا في اللغة؛ ذلك أنَه لا يوجد إيجاز على مستوى الكلمة المستعملة في الجملة بل هناك إيجاز على مستوى الصوت أيضا.

* ويتكرر الصوت في كل كلمات الجملة كما في قوله صلى الله عليه وسلَم: (ألا أخبركم بخيركم من شركم؛ فقال رجل: بلى يا رسول الله. قال: خيركم من يرجى خيره، ويؤمن شرّه وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شرّه) الكلمات التي تكررت هي(أخبر|خير|شر|يرجى) فالثلاثة الأولى تكرر حرف فيها الراء في آخرها أمّا الكلمة الرابعة ففي أولها فكأنَه جلب لاهتمام السامع كي يركّز على الفعل أكثر لأنَه أحدث التفرد في موقع حرف الراء من تركيبه

* يتكرّر الصوت الواحد في نصّ كامل يتميّز بالطول كما في حديثه صلى الله عليه وسلم: (الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر. فأمّا الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله أطال في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة له حسنات، ولو أنّها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت أرواثها حسنات له، ولو أنّها مرّت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي كان ذلك حسنات له، فهي لذلك أجر. ورجل ربطها تغنيا وتعففا ثمّ لم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي لذلك ستر. ورجل ربطها فخرا ورياء ونواء لأهل الإسلام فهي على ذلك وزر) ما يلفت النظر في هذا الحديث من حيث الجانب الصوتي تكرار حرف الراء في معظم الكلمات فلا تكاد تخلو كلمة من هذا الصوت ففي كل جملة تقع عينك على هذا الحرف وتسمع أذنك جرسه، وإذا قمنا بعملية حسابية هي رصد الكلمات التي تضمّنت هذا الصوت تحصلّنا على ما يأتي:

بني الحديث على ثلاث كلمات هي: أجر، وستر، ووزر؛ ثمّ فصلت هذه لكلمات كما يأتي: ففي كلمة أجر نجد مجموعة من الكلمات تضمّنت حرف الراء وهي: (ربط، مرج، روضة، شرفا، أرواثها، آثارها، مرّت، نهر، شربت، يرد)

وتحت كلمة ستر نجد: (ربط، رقاب، ظهورها) وتحت كلمة وزر نجد: (ربط فخر، رياء) وجاء في فتح الباري: (وقد فهم بعض الشرّاح منه الحصر فقال اتّخاذ الخيل لا يخرج عن أن يكون مطلوبا أو مباحا أو ممنوعا فيدخل في المطلوب الواجب والمندوب ويدخل الممنوع المكره والحرام بحسب اختلاف المقاصد)[14] وعليه فذكر الكلمات الثلاثة هدى شارحي الحديث لفهم هذا التقسيم على أساس فقهي. ونجد مثل هذا التكرار مطردا في كثير من الأمثال النبوية وفي حديثه صلى الله عليه وسلّم عموما .

(ب) تكرار صوتين وأشكاله: وشرط هذا التكرار أن يكون الصوتان يؤديان دورا هامّا في المعنى بإحداثهما نغما موسيقيا أثناء الأداء الفعلي للنصّ.

* يتكرر صوتان في جملتين يتكوّن منهما الحديث النبوي الشريف ويقع هذا التكرار في آخر الجملتين فيخدم ظاهرتين صوتيتين هما: السجع بالدرجة الأولى ثمّ التكرار، كما في هذا الحديث: (إذا سرتك حسنتك، وساءتك سيئتك فأنت مؤمن) فبين الكلمات الآتية اشتراك في صوتين (سرتك -حسنتك- ساءتك - سيئتك) فضلا عن هذا الاشتراك في الأصوات هناك تقابل بين فعلين هما(سرّ إساء) وبين كلمتين هما(حسنة|سيئة) ثمّ خوطب بهذا الحديث المؤمن فظهر صوتان هما(التاء والكاف) فأحدثت كل هذه الأصوات مجتمعة تكثيفا للمعنى، وحصرت ذهن المتلقي حوله.

*وقد يتكرر صوتان في جملتين متقابلتين؛ ويكون شكله أن يتكرر في بداية الجملة وفي نهايتها كما في هذا الحديث: (حفّت الجنّة بالمكاره، وحفّت النّار بالشهوات) فممّا يساعد على إظهار الصوت جليا تكرار الفعل الذي يصوّر الطريق إلى كل من الجنّة والنار. وإذا قابلنا الجملتين ألفينا تقابل ثلاث كلمات هي(حفّت |حفّت) و(الجنّة|النار)و (المكاره|الشهوات) فموقع الحرفين(الحاء والراء) هو البداية والنهاية في التركيبين. ومن ثمّة بات واضحا أن استعمال الصوت يكون مصحوبا باستعمال ظواهر لغوية أخرى وطيدة العلاقة بالمعنى كالطباق والمقابلة ولكن تخيّر لفظ أو لفظين ليطابق لفظا آخر هو الذي يجعل الصوت يؤدي دورا فعّالا في إيصال الرسالة. ومثل هذا التشكّل للصوت متوفر في المثل النبوي يصاحب دائما المعنى ليزوّده بفاعلية تمنح الرسالة كلّ أسباب الوصول إلى ذهن المتلقي بل ستخلق لديه شعورا بجمال الكلام الملقى إليه.

وقد وجدنا الذين درسوا الأحاديث النبوية يطلقون عنها وصف الفصاحة ومن هؤلاء الجاحظ القائل: (هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلّف.. استعمل المبسوط في موضع البسط؛ والمقصور في موضع القصر، وهو هجر الغريب الوحشيّ، ورغب عن الهجين السوقيّ، فلم ينطق عن ميراث حكمه، ولم يتكلم إلاّ بكلام قد حفّ بالعصمة، وشدّ بالتأييد، ويسّر بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبّة عليه وغشاه

بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلّة عدد الكلام هو مع استغنائه عن إعادته وقلّة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبدّ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلاّ بما يعرفه الخصم، ولا يحتجّ إلاّ بالصدق، ولا يطلب الفلج إلاّ بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المؤاربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطيء ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر؛ ثمّ لم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نفعا ولا أصدق لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح عن معناها، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم)[15] لقد عرض الجاحظ في هذا الوصف المطول لكلامه صلى الله عليه وسلم عدّة خصائص أسلوبية تُميّزُ الحديث النبوي الشريف، خاصة في العبارات الأخيرة عندما ذكر الفصاحة والمخرج والإبانة وهي مفاهيم لها علاقة مباشرة بالجانب الصوتي الذي نودّ تحديده وتصنيفه وفق ما تتيحه الإمكانات المنهجية. تقع الفصاحة وصفا للمفرد والكلام والمتكلّم

لقد تنوّعت الأشكال الصوتية في الحديث النبوي الشريف بين التقابل والتوازي وكذا التساوي الذي نجده بشكل واضح في عدّة أحاديث منها: (قال يا رسول الله: ما الإثم؟ قال: إذا حاك في صدرك شيء فدعه)، الصوت الذي تكرّر في هذا الحديث هو الكاف، فإذا قمنا بعدّ الحروف التي بين الكاف الأولى والكاف الثانية وجدناها تساوي عدد الحروف التي قبل الكاف الأولى: (إذا حا/ في صدر) وهذا التساوي في استخدام الحروف الفاصلة بين الصوتين شائع في الأمثال النبوية ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف) فالحرف الذي تكرّر هو صوت الفاء، وقد تساوى عدد الحروف الفاصلة بين هذين الصوتين بأشكال متعدّدة؛ فالحديث ككل يتميّز بالتساوي في عدد الحروف المستعملة ذلك أننا إذا نظرنا إليه من منظور السجع وجدناه يتألف من ثلاث فواصل الفاصلة الأولى تختلف عن الفاصلتين الثانيتين في الحرف الأخير ولكنّها تشترك معهما في عدد الحروف ففي كل فاصلة سبعة

عشر حرفا وهذا ما يدفعنا إلى القول إنّ هناك بعض الأمثال النبوية وردت على وزن شعري كما كنّا قد ألمحنا إليه في بداية الفصل. وهذه ظاهرة صوتية مطّردة في الأمثال النبوية نجدها في قوله صلى الله عليه وسلم: (بين الرجل وبين الشرك والكفر ..ترك الصلاة) وفي رواية أخرى قال: (بين العبد وبين الكفر ..ترك الصلاة) فإذا أخذنا العبارتين (بين الشرك | ترك الصلاة) وحسبنا عدد الحروف وجدنا في كل عبارة تسعة حروف. والملاحظة نفسها لو أخذنا بعين الاعتبار الرواية الثانية للحديث النبوي الشريف. ونجد الظاهرة تتكرّر في حديثه صلى الله عليه وسلّم: (إذا سرتك حسنتك، وساءتك سيئتك فأنت مؤمن) فبين العبارتين سرتك حسنتك وساءتك سيئتك تساوٍ في عدد الحروف ففي كل عبارة عشرة أحرف. وقد أشار دارسو الحديث النبوي الشريف إلى هذه الظاهرة؛ قال الرافعي: (فلا جرم كان منطقه صلى الله عليه وسلم على أتمّ ما يتفق في طبيعة اللغة ويتهيأ لها إحكام الضبط وإتقان الأداء: لفظ مشبع، ولسان بليل، وتجويد فخم، ومنطق عذب، وفصاحة متأنية، ونظم متساوق وطبع يجمع ذلك كلّه، مع تثبّت وتحفّظ وتبيّن وترسّل وترتيل، أي التمهل وتحقيق الحروف والحركات في النطق.

وقد قالت عائشة رضي الله عنها: ما كان الرسول الله صلى الله عليه وسلم يسر د كسردكم هذا. ولكن كان يتكلّم بكلام بيّن فصل، يحفظه من جلس إليه وفي رواية أخرى عنها أيضا: كان الرسول الله يحدّث حديثا لو عدّه العادّ لأحصاه)[16]

يتميز نص المثل النبوي بالتساوي في عدد الحروف واجتماع بعض الخصائص الأسلوبية المتنوعة كاعتمادها على السجع مرة وعلى الجناس مرة أخرى وعلى التقابل بين المعاني تارة أخرى. وهي ظاهرة صوتية تحيلنا إلى أنّ بعض الأحاديث النبوية وردت موزونة على بحور الشعر العربية ونزيد إلى هذه الخلاصة نتيجة أخرى هي أنّ الحديث النبوي يتميّز بالإيجاز، ومن أنواع الإيجاز التي لمسناها فيه الاقتصاد في استعمال الأصوات إلى أقصى ما تتيحه اللغة

العربية. وبلغ عدد النصوص التي تضمنت هذه الظاهرة الصوتية ما يقارب ثلث النصوص المدروسة مما دفع بنا كي نقف عندها محاولين استجلاء خصائصها.

لقد اُختُلف في ورود السجع في القرآن ومن ثمّة اُختُلف في تسميته (فالفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع، وقال القاضي أبو بكر: الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني.وفرّق الداني بين الفواصل ورؤوس الآي فقال: الفاصلة هي الكلام المنفصل عمّا بعده والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس آية وكذلك الفواصل يكنّ رؤوس آية وغيرها وكل رأس آية فاصلة وليس كل فاصلة رأس آية)[17] الذين أنكروا وجود السجع في القرآن سمّوا ما يشبهه فواصل (قال الخفاجي في سر الفصاحة:قول الرّماني إنّ السجع عيب والفواصل غلط فإنّه أراد بالسجع ما يتبع المعنى وهو غير مقصود بتكلّف فذلك بلاغة والفواصل مثله وإن أراد به ما تقع المعاني تابعة له وهو مقصود بتكلف فذلك عيب والفواصل مثله.وأظنّ الذي دعاهم إلى تسمية جلّ ما في القرآن فواصل ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعا رغبتهم في تنزيه القرآن عن هذا الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وهذا غرض في التسمية قريب)[18] وطرحت القضية نفسها في الأحاديث النبوية وكان موقف علماء الحديث منقسم إلى فريقين: فريق ينفي وجود السجع في الحديث النبوي وآخر يرى أنّه لا ضرر في احتواء الحديث العبارات المسجوعة بل ثبت أنّ تكلّم الرسول بما فيه سجع فمن ذلك ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله: (استحيوا من الله قلنا: إنّا لنستحي يا رسول الله قال: ليس ذلك ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وتذكر الموت والبلى) وقد كثر في كلامه صلى الله عليه وسلم ورود العبارات المسجوعة وهو الذي دفع البلاغيين كي يتطرّقوا لهذا الموضوع بالتحليل وإيراد الشواهد التي تبطل مزاعم من أنكر السجع في كلام الرسول و(من ذلك ما رواه ذلك ما رواه عبد الله بن سلام فقال: لمّا قدم رسول الله فجئت في الناس لأنظر إليه فلمّا تبيّنت وجهه علمت أنّه ليس بوجه كذّاب فكان

أوّل شيء تكلّم به أن قال: أيّها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنّة بسلام)[19] وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أنكر ورود السجع في كلام أحدهم وقد تكلّف السجع: (أأدي من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهلّ ومثل ذلك يطل؛ فقال رسول الله : أسجعا كسجع الكهان؟! وكذلك كان الكهنة كلهم فإنّهم كانوا إذا سئلوا عن أمر جاءوا بالكلام مسجوعا)[20]وخلاصة القول هو أنّ السجع ورد في الحديث النبوي الشريف في غير تكلف؛ والذي أنكره الرسول من السجع هو المتكلف الذي يكون فيه المعنى خادما للفظ تابعا له، أين يشغل الفكر عن الهدف المنشود. وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن السجع المتكلّف، خاصة في الدعاء حتّى لا يذهب الخشوع: (قوله وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه أي لا تقصد إليه ولا تشغل فكرك به لما فيه من التكلّف المانع للخشوع المطلوب في الدعاء وقال ابن الزين: المراد بالنهي المستكره منه. وقال الداودي: الاستكثار منه)[21]

ويدخل ضمن تنوّع الصوت في السجع استعمال الصوت المفرد في الفاصلة الواحدة مرتين كما في حديث: (يقول ابن آدم: مالي مالي وهل لك من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت) الملاحظ في هذا الحديث أنّ قوامه الفعل وكذلك حياة الإنسان يجب أن يسودها الفعل الذي يكون نافعا ولما كان الخطاب موجها إلى الإنسان الذي يكون نافعا لنفسه في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى كان الخطاب موجها إليه بصفة خاصة فتكرر الفعل بطريقة ثنائية فكل فعل ينتج عليه آخر لكن إذا غيّرنا صفة الخطاب وأرجعناها إلى صيغة الغائب تكشف لنا الأمر عن روعة السجع في هذا الحديث لأنّه في البداية كان يظهر في حرف التاء لكن عندما نغير الخطاب إلى صيغة الغائب يتجلى في حرف الياء فالأفعال (أفنى وأبلى وأمضى) كلها أفعال معتلة الآخر وكلها رباعية وكلها مهموزة وهذا الاتفاق مصحوبا بالموقع في الجملة أكسب الحديث تناغما صوتيا وانسجاما بين جمله بلغ حدّ التساوي في عدد الحروف؛ وإذا نظرنا إلى المعنى وجدنا الظاهرة الصوتية تصحبه في لطف (يقول ابن آدم

مالي كأنّه أفاد بهذا التفسير أنّ المراد التكاثر في الأموال وإنّما مالك يا بن آدم إنكار منه صلى الله عليه وسلم على ابن آدم بأنّ ماله ما انتفع به في الدنيا بالأكل أو اللبس أو في الآخرة بالتصدق وأشار بقوله فأفنيت فأبليت إلى أنّ ما أكل أو لبس فهو قليل الجدوى لا يرجع إلى عاقبة)[22]

فمن السجع القائم على حرفين قوله صلى الله عليه وسلّم في وصف الرسائل السماوية وموقع الإسلام بينها: (كمثل رجل بني دارا فأتمّها وأكملها إلاّ موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجّبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة) لقد قام السجع في هذا الحديث على حرف الهاء الذي تكرر في الأفعال (أتمّ|أكمل| دخل|تعجّب) وفصل بين هذه الأفعال بكلمة لبنة كما قام هذا الفصل على التساوي والتوازن فكأنّ كلمة لبنة هي الحد الفاصل بين هذه الأفعال إذ تخلّق في الحديث توازنا صوتيا فقارئ الحديث يتوقف عندها مرتين فضلا على أنّ صوت الهاء تنوّع بشكلين الأول هاء فيه مدّ فهي إشارة إلى البناء العالي أمّا الثانية فهي هاء السكت وهي إشارة إلى السكون والاستقرار والثبات وهي معاني موجودة في كلمة لبنة. وهذا التشكيل الصوتي الذي ينتجه السجع متوفر في الأمثال النبوية بكثرة خاصة عندما تطول العبارة وتبنى على التقابل والتوازي كما في قوله صلى الله عليه وسلّم:(فأمّا المنفق فلا ينفق إلاّ سبغت وأوفرت على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره، أمّا البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلاّ لزقت كل حلقة مكانها) علاقة الصوت بالمعنى في هذا الحديث واضحة فلبيان اليسر الذي يجده المنفق كثر التنوّع الصوتي في العبارات التي وصفته، ونقلت حاله فهناك صوتان هما: التاء التي تكررت مرتين والهاء التي تكررت ثلاث مرّات في حين تكرر صوت التاء في العبارة التي وصفت حال البخيل فقط.

يواكب توافق الفواصل مجموعة من أشكال التوازن الذي يخلقه التركيب النحوي في جملة المثل النبوي ففي قوله صلى الله عليه وسلّم: (مثل الذي يتصدّق ثمّ يرجع في صدقته مثل الكلب يقيئ ثم يرجع فيأكل قيئه) هذا البناء النحوي ينظمه السجع باعتباره فاصل بين صورتين مبنيتين على التقابل فإذا

أمعنا النظر في الجملتين وجدناهما قد تساوتا في عدد العناصر ففي الجملة الأولى ستة كلمات ففي (مثل|الذي |يتصدق|ثمّ يرجع| في صدقته) كما في الجملة الثانية ست كلمات كذلك هي (مثل|الكلب|يقيئ|ثمّ يرجع|فيأكل| قيئه) ومن الأحاديث التي بني فيها السجع على حرفين قوله صلى الله عليه وسلم: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له ،والذي نفس محمد بيده لا يستقيم دين رجل حتى يستقيم قلبه،ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه) شبه الجملة المكونة من حرفين هما اللام والهاء في(له) تكررت في الفاصلتين الأولتين وتكرر الحرفان في الفواصل الأخرى بشكل يثير الانتباه ففي كلمة قلبه نجد الصوتين وفي كلمة لسانه نجدهما كذلك وهذا التكرار يخلق التقارب بين الكلمات فالمعنى في الحديث مبني على التصعيد فقوله لا إيمان لمن لا أمانة له فيه نفي الكمال لا نفي حقيقة (قال القاضي هذا وأمثاله وعيد لا يراد به الوقوع وإنما يقصد به الزجر والردع ونفي الفضيلة والكمال دون الحقيقة في رفع الإيمان وإبطاله وقال الطيبي في الحديث إشكال لأن الدين والإيمان والإسلام أسماء مترادفة موضوعة لمفهوم واحد في عرف الشرع فلم يفرق بينها وخص كل واحد بمعنى)[23] ومن الأحاديث التي ورد السجع فيها مقرونا بظاهرة صوتية كالجناس قوله عليه السلام: (من كانت الدنيا همه وسدمه جعل الله الفقر بين عينيه ولم يأته منها إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة همه وسدمه أتته الدنيا وهي راغمه) الصوت الذي بني عليه السجع في هذا الحديث هو صوت الهاء إلاّ أنّ هناك تنويعا لصوت حينما يتكرر في الكلمتين همه وسدمه فقد واكبه صوت الميم في بداية كل جملة. ومن السجع الذي يقوم على اتفاق كلمتي الفاصلتين في الوزن حديثه عليه الصلاة والسلام: (المؤمن غرّ كريم والفاجر خبّ لئيم) فبين الكلمتين الواقعتين فاصلة (كريم ولئيم) اتفاق في أمرين هما الوزن وكذا الحرفان الأخيران (يم) لقد اجتمعت في هذا الحديث مجموعة من الخصائص النحوية والبلاغية والصوتية لتجعل منه نموذجا لإيجاز العبارة؛ فمن هذه الخصائص قيام الجملتين على التقابل من حيث المعنى فالمؤمن يقابله الفاجر وغرّ يقابله خب وكريم يقابله

لئيم فقوله(المؤمن غر كريم أي موصوف بالوصفين أي له الاغترار بكرمه وله المسامحة في حظوظ الدنيا لا لجهله والفاجر خب لئيم أي بخيل لجوج سيئ الخلق وفي كل منهما الوصف الثاني سبب الأول وهو نتيجة الثاني فتأمل فكلاهما من باب التذييل والتكميل. وفي النهاية أي ليس بذي مكر فهو ينخدع لانقياده ولينه وهو ضد الخب يريد أنّ المؤمن المحمود من طبعه الغرارة وقلة الفطنة للشر وترك البحث عنه وليس ذلك منه جهلا ولكنه كرم وحسن خلق)[24] و(التذييل هو أن يذيل الناظم أو الناثر كلاما بعد تمامه وحسن السكوت عليه بجملة تحقق ما قبلها من الكلام وتزيده توكيدا وتجري مجرى المثل بزيادة التحقيق)[25] وكذلك الحديث النبوي الشريف توفرت له كل هذه العوامل كي تجعله غاية في التعبير بالصفة التي تلحق أختها وترتبط بها ارتباطا وثيقا حين تنتج عنها ومثل هذه الخصائص قد توفرت في كثير من الأمثال النبوية كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (شر ما في رجل شح هالع وجبن خالع) لقد تساوت الكلمات التي كوّنت الحديث من حيث عدد الحروف فشح يقابله جبن وهلع يقابله خالع وهذا التساوي منضاف إليه الجناس بين هالع وخالع والسجع بين الفاصلتين كل هذا جعل الحديث يكتسب تأثيرا صوتيا.وقرنت الكلمتين للمناسبة بينهما فشح هالع(أي جازع يعني شح يحمل على الحرص على المال والجزع على ذهابه قال الطيبي: والفرق بين وصف الشح بالهلع والجبن لا خلع أنّ الهلع في الحقيقة لصاحب الشح فأسند إليه مجازا فهما حقيقتان لكن الإسناد مجازي ولا كذلك الخلع إذ ليس مختصا بصاحب الجبن حتى يسند إليه مجازا بل هو وصف للجبن لكن على المجاز حيث أطلق وأريد به الشدة. وإنّما قال شر ما في الرجل لأنّ الخصلتين يقعان موقع الذم من الرجال فوق ما يقعان من النساء)[26]

لقد قسم المهتمون بفن تجويد القرآن الحروف باعتبار صفاتها إلى تسعة عشر نوعا وبعضهم بلغ بها إلى أربعة وأربعين (أمّا الأنواع المشهورة عند علماء هذا الفن والتي هي كالأصول فهي حروف: همس، وجهر، وشدة، ورخاوة، وبين بين، وحروف استعلاء، واستفال وإطباق وانفتاح وتفخيم وترقيق

وتكرير واستطالة وغنة وذلاقة ومد ولين وصفير وقلقلة)[27] لما كان السجع بالنسبة للنثر كالروي بالنسبة للشعر حاولنا أن نقف على صفات الحروف الواقعة سجعا فحصلنا على أن نسبة الحرف المجهور أكثر من نسبة الحرف المهموس. (فالحرف المهموس هو الذي ضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه حروف هذا النوع عشرة.أماّ المجهور فهو الذي أشبع الاعتماد في موضعه أي على مخرج الحرف ومنع النفس أن يخرج معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت وحروف هذا النوع تسعة عشر)[28] وعليه فالدراسات الصوتية للحرف العربي انتهت إلى نتيجة مفادها أن نسبة المجهور في اللغة أكثر من المهموس وهذا ما يؤكد مرة أخرى انتماء هذا النص إلى اللغة العربية وأنّه يصدر عن سليقة نبتت في بيئة تعطي اعتبارا كبيرا للإنتاج الأدبي الخاص؛ فضلا على أنّ الدعوة إلى الدين الجديد تعتمد على الجهر في تبليغ الرسالة.

الجناس ظاهرة صوتية تخصّ الكلمة في علاقتها بأختها في الجملة الواحدة؛ وهو ما يخلق عادة إثارة لدى المتلقي للمعنى، فيشدّه إليه ويلح عليه حتى يدركه؛ وهذا ما وجدناه مكرسا في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلّم. ولن نخرج عن الطريقة التي اتبعناها من بداية الدراسة وهي الاستفادة من إشارات المبثوثة في كتب شرح الحديث لظاهرة صوتية معيّنة ثمّ محاولة استجلائها بتطبيق إجراءات الأسلوبية عليها، ولمّا كان الجناس ظاهرة صوتية تثير اهتمام البلاغيين الذين وضعوا لها تعريفا وحددوا لها أنواعا، وربّما أشاروا لبعض خصائصها في نقل المعنى وإثارة انتباه المتلقي، لم يغفله شارحو الحديث، ففي كتاب فتح الباري ذكر الجناس في عدّة مواطن: عندما شرح رسالة الرسول صلى الله عليه وسلّم إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام قال: (وقوله أسلم تسلم غاية في البلاغ وفيه نوع من البديع وهو الجناس الاشتقاقي قوله يؤتك جواب ثان للأمر وفي الجهاد للمؤلف أسلم أسلم يؤتك بتكرار أسلم فيحتمل التأكيد ويحتمل أن يكون الأمر الأول للدخول في الإسلام والثاني للدوام عليه)[29] فالملاحظ أنّ صاحب الكتاب ذكر نوعا من الجناس وهو الجناس الاشتقاقي في

معرض شرحه مع الإشارة أنّ الكلمة الواقعة جناسا تحتمل معنيين ومن ثمّة فالجناس يلعب دورا في تبيين المعنى، ومن الأحاديث التي أشار إليها قوله صلى الله عليه وسلّم: (الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة) (قال عياض في هذا الحديث مع وجيز لفظه من البلاغة والعذوبة ما لا مزيد عليه في الحسن مع الجناس السهل الذي بين الخيل والخير؛ قال الخطابي: وفيه إشارة إلى أن المال الذي يكتسب باتخاذ الخيل من خير وجوه الأموال وأطيبها والعرب تسمي المال خيرا كما تقدم في الوصايا في قوله تعالى إن ترك خيرا الوصية؛ وقال بن عبد البر فيه إشارة إلى تفضيل الخيل على غيرها من الدواب لأنه لم يأت عنه صلى الله عليه وسلم في شيء غيرها مثل هذا القول وفي النسائي عن أنس بن مالك لم يكن شيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم)[30]

ولعل من وظائف الجناس في التركيب الصوتي هو لفت انتباه السامع في الكلمتين المشتركتين في الأصوات كلّها أو في بعضها فهو تشكيل صوتي يجمع ذهن المتلقي حتّى يعمل فكره ليدرك العلاقة التي تجمعهما فضلا على الجمع بين هاتين الكلمتين من حيث التركيب النحوي لذا فالجناس نوع من التركيب الصوتي الذي يحمل المتلقي كي يقوم بالجمع بين الكلمتين من حيث المعنى بعد تلقيهما صوتيا؛ كما قوله صلى الله عليه وسلّم: (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ ويَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ) في الحديث جناس بين مسلم وسلم ومهاجر وهجر وهو جناس اشتقاق، فالمسلم الكامل هو الذي يسلم من لسانه ويده المسلمون فكأنّ كماله مشتق من سلامة المسلمين من أفعاله وأقواله وكذلك المهاجر الحقيقي هو الذي يهجر المنهيات. ومن هذا نستنتج أنّ الجناس الاشتقاقي لعب دور التعريف بموضوع الكلام ليزيده معاني أخرى تترقى بذهن المتلقي .

ومن خصائص استعمال هذه الظاهرة الصوتية في الأمثال النبوية الاستعمال البسيط الذي يجعل منه شكلا صوتيا منسجما مع تركيب الجملة وغالبا ما يستعمل في الأمثال الموجزة من حيث استعمال عناصر الجملة وهو ما نجده

في قوله صلى الله عليه وسلم: (فآثروا ما يبقى على ما يفنى)، فرغم ورود هذه العبارة في حديث يتميز عموما بالطول إلاّ أنّها انفردت بالمعنى الذي يجعلها تتويجا لمجموع للحقيقة المبسوطة فإذا رجعنا إلى الفعلين المستعملين وجدنا أنّها استعملا بكثرة في نصوص الحديث الأخرى حتّى عوّضا ما أطلقا وصف له فإذا قيل الفانية فُهِمَ منه الدنيا وإذا قيل الباقية فُهِمَ منه الآخرة فالجناس يأتي من صميم الاستعمال المكرس؛ (ففي استعمال اللغة العاطفي والشعري تجلب الأفعال بمظهريها الصوتي والدلالي الانتباه فتوحي بالعلاقة الموجودة بين المظهر الصوتي والمعنى)[31] ففي قوله صلى الله عليه وسلّم: (البركة مع أكابركم) نحسّ بهذا التقارب بين المعنيين الناشئ من تقارب الأصوات فيهما فالبركة يطلبها المسلم بفعل الطاعات والاتصاف بالقناعة في الحياة فكأنّ البركة الكثيرة الكاملة المطلوبة مصدرها الكبار؛ ونجد هذا التقارب لكن مع اختلاف المعنى في قوله عليه السلام: (الْحَلِفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ) فبين منفقة وممحقة شبه تجانس فقد عبر هذا التقارب الحاصل بين الكلمتين عن توهم البائع المقسم على جودة بضاعته وبهذا الحلف يزيل البركة المطلوبة حتى وإن راجت البضاعة فحصل الكثير فالكثير ليس معناه البركة.

ومن خصائص الجناس في الحديث الأمثال النبوية أنّه غالبا ما يستعمل في العبارة مصحوبا بظاهرة معنوية كما نجده في العبارة السابقة فالفناء يضاده البقاء ومنه نستنتج أنّ توظيف الجناس يتمّ بحسب ما يمليه المعنى. وهو ما نجده مطردا في معظم الأحاديث التي تضمنت هذه الظاهرة الصوتية كم في قوله عليه السلام: (يسّروا ولا تعسّروا بشّروا ولا تنفروا)؛ لقد جمع هذا الحديث كثيرا من الخصائص الصوتية أوضحت ما في هذا المنطق من تسديد وإصابة لكن البارز في الحديث الجانب الصوتي المتمثل في استعمال الجناس الخطي الذي يحمل أكثر من تأثير فهناك التأثير الصوتي الذي ينبه السامع إلى الرسالة التي يحملها الحديث فيركز ذهنه على التقابل بين الفعلين فالتيسير مصحوب بعدم التعسير فيصبح بهذا الشكل الأصل في الأمور. وبهذا يصبح الجناس بين الكلمتين

مدار المعنى الذي اكتسب الصورة السمعية المؤثرة في السامع؛ ونجده مدارا للمعنى في قوله صلى الله عليه وسلّم: (إنّ بَيْنَ الرَّجُلِ وبَيْنَ الشرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ) ففي كلمتي الشر ك والكفر جناس ناقص بمعنى أنّ هناك حرفا واحدا يفرق بينهما وفي الوقت نفسه قد يوحي للمتلقي أنْ لا وجود لفارق بين المعنيين لأنه حصل بينهما تجانسٌ.

أمّا في قوله صلى الله عليه وسلّم: (الأرواح جنود مجنّدة ...) فقد أدّى الجناس دورا حاسمة في الإيحاء بالمعنى إذ نوع الجناس اشتقاقي لأنّ كلمة مجنّدة أخذت من جنزد لدلالة على أنّ الأرواح تشتاق إلى صنفها وتتجاذب وتتقارب لمثيلها لأنها قد اشتقت من بعضها البعض.أمّا في قوله صلى الله عليه وسلّم: (التحدث بالنعمة شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب) فنجد الجناس بين كلمتين هما شكر وكفر يصاحبه تضاد المعنيين ويؤلف كلّ هذا التركيب الهندسي للحديث إذ يوحي عن طريق التقابل بين عناصره أنّ هناك جناسا آخر من جنس آخر بين رحمة وعذاب وأنّ الكلمتين المتجانستين جزئيا هي مدار الحديث ومحوره فتقابل كلمة الشكر كلمة الرحمة وكلمة كفر عذاب ويمكن أن نوزّع الكلمات الأربع بهذه الطريقة (شكر -جماعة -رحمة)، (كفر – فرقة – عذاب).وإذا استعمال اشتراك هذه الكلمات الأربع في الأصوات فإنّا نجدها تشترك فيها قبل المعاني والوضعية التركيبية (الشكر رحمة، والفرقة كفر)؛ ونجد الاستعمال نفسه في قوله صلى الله عليه وسلّم : (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِكُمْ مِنْ شَرِّكُمْ ...خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ وَشَرُّكُمْ مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ) فهذا خبر عن الخير بدأ به الرسول صلى الله عليه وسلّم وهو خبر عام جعل الصحابة يترددون لمّا سألهم الرسول في الإجابة إذ فهموه على أنّه خبر يفيد الخصوص بمعنى أنّ الرسول سيسمي الخيّر الشرير منهم، فقد استعمل الرسول الفعل أخبر والاسم خيركم ليحصل هذا التقارب بين الكلمتين الذي أفاد عموم الخير بين المسلمين، ونجد مثل هذا الاستعمال مكرّسا في قوله صلى الله عليه وسلّم: (خير النكاح أيسره)فبين خير يسر تجانس حرفان فكأنّ اليسر جنس

من الخير فإذا التيسير في النكاح فهو الدليل عن خيره ويمنه. ويستعمل الجناس في المثل النبوي ليوحي بقرب العبد من ربّه رغم احتقاره من الناس (رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ) فبين ربَّ أبرَّ تقارب صوتي يحدثه تجانس الحروف الذي يوحي بقرب استجابة الله لدعاء الأشعث الأغبر المدفوع بالأبواب. ولعل من خصائص الجناس في الأمثال النبوية حصوله بين الكلمتين من الجنس الواحد كأن يكون بين فعلين أو اسمين.

يخلق الجناس في خطية الجملة إمكانات التعبير حين يكثف ذهن المتلقي حول بؤرة الكلمتين المتجانستين في الحروف والمختلفتين في المعنى؛ فيقتصد المسافة الفاصلة التي يخلقها عادة التركيب النحوي، وهي استراتيجية صوتية وجدناها مطردة في الحديث النبوي الشريف عموما في الأمثال النبوية خصوصا؛ كما تميّز الجناس بالتنوّع ويمكننا أن نفسّر هذا التنوّع بالرجوع إلى حاجة المتكلّم لتوظيف الإمكانات الصوتية التي تتيحها اللغة؛ كما تتحكّم طبيعة المعنى والموقف في هذا الاستعمال.فضلا على مراعاة نوعية المتلقي الذي اعتاد على الاستعمال الخاص للصوت بشتى أشكاله.أمّا خصائص توظيف الجناس في الأمثال النبوية فهي خضوعه للمعنى وروده بشكله البسيط دون قصد إليه بل يرد في معرض الكلام .

التهميش:

1. عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، المزهر في اللغة، دار الجيل بيروت، ج01، ص486.

2. أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، دار الفكر العربي، ط2 سنة 1988، ج01، ص04.

3. أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، المستقصي، دار الكتب العلمية بيروت، سنة 1987.

4. الماوردي علي بن محمد بن حبيب ،الأمثال والحكم ،ص20 .

5. مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب ج2 ص 324 دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان ط 02 سنة 1974.

6. كمال عز الدين، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ،ص274.

7. محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري ،ص32.

8. يس، الآية 69.

9. الشعراء ،الآية 224.

10. أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، دار ومكتبة الهلال بيروت لبنان، ج01 ص78،77،76 .

11. مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ج02ص309،308،307 .

12. الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، ص 276 ،277، 278.

13. فيض القدير،ج 03 ص 482 .

14. فتح الباري، ج06 ص 64.

15. مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية،ج02 ص282، 283.

16. الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ج 02 ص296.

17.السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، دار ومكتبة الهلال بيروت، ج02 ص96.
18. المرجع نفسه، ج02 ص98.
19. المثل السائر، ج01، ص196 .
20. المرجع نفسه، ج 01، ص 197.
21. فتح الباري، ج 11، ص139.
22. أبو الحسن نور الدين بن عبد الهادي السندي، حاشية السندي، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ج06، ص238.
23. فيض القدير، ج06 ص381.
24. تحفة الأحوذي، ج06 ص84.
25. خزانة الأدب، ج1 ص242.
26. فيض القدير، ج04 ص160.
27. مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ج01 ص123.
28. ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج01، ص63.
29. فتح الباري، ج1 ص38 .
30. فتح الباري، ج 6 ص 56
31. Roman JAKOBSON , Huit questions de poétique , p15.